الحنين والغربة في شعر ابن الساعاتي

الأستاذ المساعد الدكتور
حميد رضا زهره اى
جمهورية إيران الإسلامية ـ جامعة آزاد الاسلاميّة خرم آباد
hamidzohrei@yahoo.com

١ـ المقدّمة:

فقد اهتمّ الشعراء منذ القديم بظاهرة الحنين والغربة، فكان الشاعر يعاني ويشعر بالألم بسبب الفراق والبُعد عن الوطن وعن كلّ ما كان يفتقده من الأحبّة والأصدقاء، وأيّام الشباب، والمحبوب و... وقد ظهرت هذه الظاهرة في شعر ابن الساعاتي اخترنا هذا الموضوع لدراستنا بسبب كثرة الحنين والغربة في شعر ابن الساعاتي والذي عثرنا عليه من خلال بحثنا العلمي لديوانه؛ فهذا الديوان طافح بهذه الظاهرة؛ وابن الساعاتي قد عاش في دمشق الشطر الأكبر من حياته لكنّه غادر وطنه مكرهاً لطلب المال وحسن الحال، فبقي شديد الحنين إلى وطنه الحبيب، وظهرت آثار الحنين والغربة في كثير من أعماله الشعريّة. قبل أن نتطرّق إلى صلب الموضوع نلقي الضوء على خلفيّة البحث فهناك دراسات تعني بموضوع الحنين والغربة نخصّ منها بالذكر رسالة تحت عنوان ((الغربة والحنين إلى الدّيار في شعر العصر العبّاسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤هـ)) إعداد الطالب محمّد عبد المنعم محمد قباجة من جامعة الخليل، وقد تطرّق الباحث في هذه الدراسة إلى ظاهرة الغربة و الحنين في شعر العصر العبّاسيّ الثانيّ. ورسالة الطالبة ميّ إبراهيم حسن عمرو تحت عنوان "الحنين في الشعر الزنكيّ والأيّوبي" التي قدّمت في عام ٢٠١١م بجامعة الخليل تطرّقت الباحثة إلى مضامين شعر الحنين ومظاهره في الشعر الزنكيّ والأيّوبي. ورسالة دكتوراه تحت عنوان "الحنين في شعر صدر الإسلام"، إعداد الطالب وهران حبيب محمود التي قدمت بجامعة تشرين عام ٢٠٠٣م. ومقالة "الجواهري والحنين إلى الوطن في شعره" إعداد الدكتور أبو الفضل يداللهي، وتطرّق الباحث في هذا المقال إلى الحنين في شعر الجواهري واعتقده الباحث أنّه ليس منفصلاً إلى المكان بل هو ممزوج بالألم والحقد على الواقع. هذا ما عثرنا عليه من خلال بحثنا حول جهود الباحثين في هذا الحقل، ولم يتطرّق أصحابها إلى موضوع الحنين والغربة في شعر ابن الساعاتي.

١- ٢- الحنين والغربة لغةً واصطلاحاً

المعنى اللغوي لمفردة الحنين؛ فيقال: حَنَّ يحنُّ حَنِيناً: صوّتَ، والحنين: صوتُ الطّرب لحزن أو فَرح، والحنين: الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان، وحنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها أو أولادها، والناقة تحنّ إثر ولدها حنيناً تطرب مع الصوت؛ والحنون من الرياح التي لها حنين كحنين الإبل أي صوت يشبه صوتها عند الحنين. (المصدر السابق: مادّة حنن).

ويقال: حنّ قلبي إليه فهذا نزاع واشتياق من غير صوت، وحنّ عليه أي عطف عليه، وحنّ إليه، أي نزع إليه. ومن معانيه: العطف والرحمة؛ قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (سورة مريم/١٣). أي الرحمة. والحنان من صفات الله عزّ وجلّ أي ذو رحمة وتعطّف. والحنّانة من النّساء التي تحنّ إلى زوجها الأوّل، وقيل: هي التي تحنّ على ولدها الذي من زوجها الأوّل. (ابن منظور، ١٩٩٤م: مادّة حنن).

والحنين هو ((مصطلح أدبي طغى على الشعراء الذين ابتعدوا عن وطنهم فاعتراهم الشوق إليه؛ فكانوا يتغنّون به وبجماله وهم يعبّرون عنه، ولا يكون شعر الحنين إلى الأوطان إذا كان المرء في وطنه، إلاّ إذا كان في غربةٍ نفسيّة)) (التونجي، ١٩٩٩م: ٣٨٥/١).

أمّا المعنى اللغوي لمفردة الغربة فهو النزوح عن الوطن، ويقال: رجل غرْب أو غريب: غريب عن وطنه. (ابن منظور، ١٩٩٤م: مادّة غرب). وفي أكثر المعاجم تدلّ هذه المفردة على معاني البُعد والانشقاق والابتعاد والمفارقة والغربة عاطفة تستولي على المرء، فيشعر بألم وكآبة تجاه ما ترك من المفتقدات كالأهل والأحبّة والديار، أو شعور بالوحدة وفقدان المكانة الاجتماعيّة؛ أو شعور بوحدة الروح في هذا العالم ظاهرة الحنين والاغتراب من الأغراض القديمة في الشعر العربي، فنرى الشاعر على مدى العصور يشعر بالحنين والغربة ويعبّر عن تجربته الإنسانيّة الصادقة تجاه الوطن الذي رحل عنه. فظهر هذا النوع الخاصّ من الشعر لأوّل مرّة بصورة بارزة في الشعر الجاهلي، وأوّل من شعر بالغربة وحنّ إلى الديار وبكى عليها هو ابن حذام، و يستدلّ على ذلك من قول امريء القيس، حيث يقول:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لأنَنَا ... نَبكِي الدِّيَارَ كمَا بَكَى ابنُ حِذَامِ

(امرؤالقيس، (لاتا): ص١١٤)

ونرى هذه الظاهرة واضحة في الشعر الجاهلي بشكل عامّ؛ فأطلال الجاهليّة تشكل مادّة غزيرة في هذا الموضوع. فكان شأن الشعراء الجاهليين أن يستهلّوا قصائدهم بذكر الأطلال والدّمن ويحنون إلى الديار والمنازل والأحبّة. وقد دخلت ظاهرة الحنين والاغتراب في كتب الأدب، فالجاحظ له رسالة في الحنين إلى الأوطان تحدّث فيها عن الملوك والأنبياء والأعراب، فيورد بعض الأقوال في حبّ الوطن منها: ((وشبّهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه فلا أمّ ترأمه ولا أب يحدب عليه)). (الجاحظ، ١٩٧٨م: ص١١).والبيهقي يخصّص في كتابه ((المحاسن والمساويء)) بابين أحدهما محاسن الحنين إلى الوطن والآخر مساويء من كره الوطن، كما صنّف ابن المرزباني الكرخي كتابين في الحنين والشوق إلى الأوطان. (البيهقي، ١٩٩١م: ٢٨٦-٢٩١). وصنّف ابن المرزبان الكرخي كتابين في الحنين والشوق، كتاب الحنين إلى الأوطان، وكتاب الشوق والفراق. وقد وضعه قدامة بن جعفر كغرض شعريّ تحت باب النسيب، فيقول: ((قد يدخل في النّسيب التشوّق و التذكر لمعاهد الأحبّة بالرياح الهابّة، والبروق اللامعة، والحمائم الهاتفة، والخيالات الطائفة، وآثار الديار العافية، وأشخاص الأطلال الدائرة)) (قدامة بن جعفر،(لا تا): ص١٢٤). كما ذكره المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمّام، أوّل أغراض الشعراء في القديم، فيقول: ((والشعراء إنّما أغراضهم التي يسدّدون نحوها، وغاياتهم التي ينزعون إليها، وصف الديار والآثار والحنين إلى المعاهد والأوطان و...)) (المرزوقي، ١٩٦٧م: ٢٠/١). وكان قد اقتصر مصطلح الغربة والحنين في ما سبق على الشوق إلى الوطن والنزوع إليه؛ دون العناية بالمفتقدات الأخرى التي يحنّ إليها الشاعر كالأهل، والأحبّة، والأصدقاء، والذكريات الماضية؛ فنرى أثراً بالغاً لهذه المفتقدات على شعر الشعراء. فمصطلح الحنين ذو صلة بالفقد، وهو يعبّر عن شغف المرء واشتياقه إلى المفتقَد مهما كان نوعه فإنّ الحنين يُعبِّر عن عاطفة إنسانيّة صادقة، ويرتبط غالباً بالغربة التي يفارق فيها الإنسان وطنه وأهله وأحبّاءه لظروف مختلف فعبّر الشعراء عن الإغتراب وحنينهم لوطن تركوه، لما أودعوا فيه من المفتقدات الغالية من الأهل والأقرباء والأحبّة والأصدقاء والذكريات، إمّا رغبةً في العلم، والجاه، والمال، أو مكرهين في حالة الفقر والنّفي.

١-٣- حياة الشاعر ونشأته

علي بن رستم بن هردوز، أبو الحسن بهاء الدين الساعاتي، شاعر مشهور، خراساني الأصل ولد ونشأ في دمشق، وكان أبوه يعمل في الساعات فلهذا لقّب الشاعر بابن الساعاتي. (ينظر: ابن خلّكان، لاتا: ٣٦٢/١).

فقد ترك دمشق وقد تجاوز الثلاثين وإنّه بقي في مصر بقيّة عمره والظاهر إنّه لم يرحل عن وطنه دمشق إلّا كارهاً مدفوعاً إلى الرحيل بلطلب المال وحسن الحال. (مقدّمة الديوان، ص١٦).

وكان يعيش ابن الساعاتي في زمن الأيّوبيين وبما أنّ والده كان خادماً للسلطان، وإنّ أخاه وزير للملك الفائز ابن الملك العادل الأيّوبيّ والملك المعظم عيسى بن الملك العادل (ينظر: ابن أبي أصيبعة، ١٣٠٠هـ: ١٨٤/٢)، فلابدّ أنّ له صلات بالأمراء الأيّوبيّين ورجالهم. فهو قد برع في الشعر ومدح الملوك وكان يلقّبه ياقوت الحمويّ بالشاعر الدّمشقيّ وقد ذكر مختارات من شعره(ينظر: الحموي، لاتا: ٧٧٥/١). وتوفي بالقاهرة، سنة ٦٠٤هـ.

٢- أنواع الحنين والغربة في شعر ابن الساعاتي

٢-١- الحنين والغربة المكانيّة

هو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان بسبب بعده عن وطنه وهذا النوع من الغربة لم يكن جديداً في الشعر العربيّ؛ فقد عبّر الشعراء عن صدق أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه الوطن، وبما أنّهم كانوا شديد الاتصاق بأوطانهم فجاء حنينهم حنيناً صادقاً، فكان الشاعر يعبّر عن هذه الغربة والحنين من خلال ذكر الأطلال والآثار والدّمن والقاء التحيّة والسّلام؛ وذكر الوطن بما فيه من الجمال والبهجة والأنهار والطبيعة، أو ذكر نجد كرمز للوطن الذي كان يعيش فيه الشاعر. أو الحنين إلى الأهل والأقرباء والأصدقاء، والحنين إلى الذكريّات الماضية والحنين إلى المحبوب. وقد تجلّى التعبير عن الغربة والحنين بأشكاله المختلفة في شعر ابن الساعاتي.

٢-١-١- ذكر الأطلال والآثار والدمن

فقد عبّر شعراء عصر الجاهلي عن غربتهم وتركهم أوطانهم؛ واعتاد شعراء هذا العصر

أن يعبّروا عن حنينهم إلى الدّيار والأيّام السالفة بإلقاء التحيّة والسلام على مسامع الديار المقفرة من أهلها؛ وكانوا يقصدون أهلها الظاعنين عنها، واستمرّ إلقاء السلام والتحيّة على الأطلال والرسوم على مدى العصور. وقد أشار ابن قتيبة أنّ الوقوف على الأطلال إنّما هو الحنين إلى الوطن، فيقول: ((إنّ مقصد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار، والدّمن والآثار، فبكى وشكى، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها)) (ابن قتيبة، ٢٠٠٣م، ٤٠٦/١).

والآمدي كان يرى أنّ الغرض من ذكر الديار، والوقوف عليها هو الحنين والشّوق إليها، وإلى أيّامها الخاليّة، لأنّه لا غرض له، فماذا يريد الشّاعر من أطلال خالية وآثار بالية. (حوّر، ١٩٧٣م: ص٤٥).واتّفق المحدثون مع القدامى أنّ الوقوف على الأطلال هو في أصله الشعور بالاغتراب والحنين للوطن. حيث يقول شوقي ضيف أنّ الوقوف على الأطلال وبكاؤها هو صورة ثابتة لهذا الحنين الذي نما مع العرب على مرّ الزّمن، واختلاف المنازل والأمكنة. فتارة يبكي الشعراء منازل الحبيبة، وتارة يهيّج الحمام أشواقهم، وقد تهيّجه ريح الصّبا وغيرها من الرّياح، وكان نزوحهم عن أوطانهم سبباً في استمرار هذا الحنين. (ضيف، لاتا: ٢٥٦ و٢٦٣).

فالشاعر عندما يشعر بالغربة المكانيّة والإبتعاد عن وطنه يتشوّق ويحنّ إليه؛ فهو يعبّر عن هذا الشوق كشأن الشعراء الجاهليّة من خلال ذكر الأطلال والآثار الماثلة من الأهل والأحبّة والبكاء عليها كرمز لاستعادة الحياة الماضية، ومن خلال إلقاء التحيّة والسّلام على تلك الديار والأيّام السّالفة، أو الدعاء بالسقي لدار الأحبّة. فابن الساعاتي يحذو حذو الشعراء العصور الماضية فيتحدّث عن الديار الداثرة والدّمن البالية التي أمست مقفرة من أهلها، فيقول:

إنَّ الـــــدّيارَ كالجُسُـــــومِ أصـــــبَحت مُوحِشـــــةَ الأرجَـــــاءِ مِـــــن سُكـــــانِها

(ابن الساعاتي، ١٣٤/٢)

وقفة جمالية: في هذا البيت من الشعر يستنجد ابن الساعاتي لبيان أحاسيسه الجياشة إزاء الوطن والحنين إلى الأرض والدّيار بعنصر التّشبيه فشبّه وحشة الدّيار بالجسوم الّتي

تخلّت عنها أرواحها فالدّيار هي كالجسوم تضم الأرواح فهي كالأبدان ويطلب ابن الساعاتي من صاحبه أن يلقي السلام ويحيّي الديار بـ ((رامتين))، ثمّ يدعو الله أن تسقيها السحاب الممطرة. فهو قد شغف بهذه الديار واشتدّ حنينه إليها فيطلب من صاحبه أن ينظر إلى آثارها ورسومها لأنّه لا يستطيع أن ينظر إليها من شدّة البكاء ولا يستطيع الوقوف عن البكاء و النحيب؛ فيقول:

حيّ الدّيار برامتين ونادها ... جادتْ عهادُ المُزْن عَهدَ سُعادها

فلربّما بَلغَ المُرادَ مُخاطِباً ... عَن حالِ ناطِقِها لسانُ جَمَادها

انظر مَعالِمها سَلَمْتَ فمُقلتي ... مَشْغولة ببكائِها وَسُهادِها

(المصدر نفسه، ٢٤٨/١)

وقفة جمالية: في هذه الابيات يذكر الشاعر الديار برامتين ويتذكر عهود المرابع النضرة والمخضرة فيقول أنذَ المرابع والدّيار هي الّتي تتكلم عن أحاسيسها إزاء ساكنيها الذين انتقلوا عنها في هذا الحال أنَّ مقلتي مشغولة بالبكاء متواصلة في ذرف الدموع على الذكريات التي قضيتها في مرابعها. وفي موضع آخر يطلب من خليله أن يلقي السلام على الأطلال و الدّمن، فيقول:

سَلِّم ـ سَلِمْتَ ـ على الأطْلال والدّمنِ ... وَقِفْ على الحَزْن لا روّعت بالحَزَن

كمْ بَيْنَ تِلكَ المَغَاني مِنْ قَتيلِ الهَوى ... مِثلي وصَبٍّ شَجٍ بالبينِ مُمْتَحَنِ

(المصدر نفسه، ٩٤/٢)

وقفة تحليلية: الشاعر ابن الساعاتي في هذين البيتين يجرِّد من الأطلال والدِّمن عقلاءَ فيجعل من غير العقلاء عقلاء إذ يسلّم عليهم ثم يستشعر أولئك الذين ذابوا وانصهروا بالعشق والمحبة. وهو يطيل البقاء في تلك الديار وستمرّ في بكائه، فهو يرى في البكاء تخفيفاً للآلام والأحزان، فيقول:

ظللتُ في الدّار أبكيها و يُضحِكها ... دَمعٌ عَلى تلكمُ الأطلالُ مَطلُولُ

(المصدر نفسه، ٤٨/١)

وفي موضع آخر يظهر الشاعر لوعةً و ألماً في بكائه، فهو يبكي بدل الدموع دماً لشدّة الشوق الملتهب؛ فالنياق سائرة بكلّ شخص خالٍ من لوعة الحبّ لكنّ في الحيّ من شُغل بحبّه، فيقف الشاعر يوم الفراق و دموعه جارية مسمرّة؛ فلا يستطيع أن يمضي، فكيف و قد نفد الصبرُ:

قَـالـــوا بَـكيـــتَ وَالعِـــيسُ سَائِـــرَةٌ ... بِكـلِّ خَـــالٍ بِـــهِ فِي الحَـــيِّ مَشغُـــولُ

وَالـــوَمضُ يَغمـــضُ فِي جَفـــنيَّ صـــارمُهُ ... لا غَـــروَ لِلسَّـــيفِ يَـــدمِي وَهـــو مَســـلولُ

وَقفـــتُ والدّمـــعُ جـــارٍ يَـــومَ بَيـــنَهُمُ ... وَكيـــفَ أمضِـــي وَحـــدُّ الصَّـــبرِ مَفلُـــولُ

(المصدر نفسه)

وقفة تحليلية: في الأبيات شكلَ الشّاعر مشهدا حزينا ودراماتيكياً فيقول كما أنَّ السَّيف يدمي وهو مسلول هكذا أنَّ دموعي جارية ومنسكبة عليهم يوم رحيلهم فكيف أستطيع أن أتجاوزهم ووصل صبري إلى حد الانتهاء ويتذكر الشاعر الديار الخالية من الأهل والأحبّة فيذرف الدموع من أجلها ويذكر أيّام الشباب الذي قضاها بذاك المكان، فيشعر بلوعة بسبب أهله وأحبّته فقد هاجروا من هذه الديار.

سَقَـــى اللّهُ تِلـــكَ الـــدَّارَ دَرَّ سحـــابَةٍ ... تُعيـــدُ غِنَـــى فَقـــرِ المهـامَـــةِ والقَفـــرِ

مَتَـــى وَقَفـــت تَبكـــي عَلـــى عَرَصـــاتها ... تَـــقُل هـــذه الخنســـاء تبكـــي عَلـــى صَـــخرِ

خَلعـــتُ الشّـــبابَ الغَـــضَّ فِي حجراتهـــا ... وأنفقـــتُ كـــنزَ العُمـــرِ فِي ذلـــك العُمـــرِ

ألَـــم تَـــرني أبكـــي عَلـــى الهَجـــرِ لوعـــةً ... ومِـــن قَبلِهـــا كنـــتُ أبكـــي مـــن الهَجـــرِ

(المصدر نفسه، ٥٧/١)

وقفة جمالية: يدعو ابن الساعاتي أن تُسقى ديار الأحبّة بالسّحاب الممطرة، و أن يعود للأرض خصبها بعد جذبها، و يشبه بكاءه على دار الأحبّة و شغفه، بلوعة الخنساء و هي تذرف الدمع على أخيها صخر. ويريد الشاعر أن يسقي ديار الحبيب بأدمعه بدلاً من الأمطار، تلك الدّيار التي تهبّ رياح الجنوب والصّبا من جانبها فتذكره بأشجانه.

سَـــقَى دَمـــعُ عـــيني لا دمـــوعُ الغمـــائمِ ... مواقِـــفَ نُعـــمٍ بـــين تلـــك المعـــالمِ

مَنـــازِلَ ثُملينـــا أحادِيـــثَ شَـــجوها أســـانيدُ أنفـــاس الصَّبـــا والنعـــائمِ

(المصدر نفسه، ١٣٨/٢)

وقفة تحليلية: يعتقد الشاعر أنّ دموعه الغالية أولى بأن تسقي مواقف أهله وأحبّته؛ تلك المنازل التي تقع في مهب رياح الصّبا وتملي له أحاديث الحزن والشجى وتهيّجه. ويطلب ابن الساعاتي أن تسقى دمشق تلك الديار التي قضى فيها شطراً كبيراً من عمره، بسحابة مثقلة بالأمطار، فيقول:

ســـقَى دِمشقـــاً كـــلُّ مُثقلـــة الخُطَـــى تَمشِـــي فَتســـحَبُ مِـــن فضـــولِ مُلائهـــا

(المصدر نفسه، ١٢٨/٢)

ويدعو الشاعر أن تسقى أطلال المحلّة الكبرى بمصر بأمطارٍ مادام قلبه يشتاق إلى ربعها المأنوس، فيقول:

ســـقَى اللّهُ أطـــلالَ المحلَّـــة مَـــا صَـــبَا إلى رَبعهـــا المأنُـــوسِ قَلـــبُ مشـــوقِ

(المصدر نفسه، ٥/٢)

٢ـ١ـ٢ـ ذكر الوطن والحنين إليه.

يذكر الشاعر وطنه بما فيه من الجمال و الطبيعة و الأنهار أو يفضّله على غيره من الديار؛ والحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانيّة لا يستطيع المرء أن يتخلّى عنها، مهما بلغ رقيّه الحضاري وتطوّره المادّي وسموّه الرّوحي (حوّر، ١٩٧٣م: ١٨). لأنّه منذ عرف الإنسان الوجود وعرفه الوجود، ملتصق ببيئته لا فكاك منها، وكادت الصّلة بينه وبين بيئته أن تكون أوثق من صلته بأسرته، فهو ينسب إلى أسرته كما ينسب إلى بيئته، ويستفيد صورته من بيئته، كما يستفيدها من أسرته. (الإبياري، ١٩٦٢م: ٣ ومنذ القدم ارتبط الشوق و الحنين بالوطن، فصار الحنين إلى الأوطان شائعاً في كلّ العصور سواء للوطن والقبيلة والحيّ أم الشّعب والأمّة الكبيرة، وسواء أكان مسقط رأس أم لم يكن، فالحنين إلى الأوطان انتماء وولاء وحبّ وحنين. (الجبّوري، ٢٠٠٨م: ١٠) فابن الساعاتي عاش الشطر الأكبر من حياته في دمشق ثمّ رحل عنها لطلب سعة المال والجاه، فنراه في قصيدته التي بعث بها إلى قاضي دمشق محمّد بن زكيّ الدين، يتشوّق إلى وطنه ويحنّ إليه ويذكر بعض منازله كجيرون

والشرَفين والمصلّى والربوة والميدان (اماكن معروفة في دمشق)، ويصفه بالجنّة بما يحويه من مظاهر الطبيعة الخلّابة؛ ثمّ يقول:

دَارٌ هِـــي الجنّـــة خـــاب عـــاذل ... في حُورهـــا العِـــين وفي ولـــدانها

واُحـــزنَ نفســـي لِفَـــراقِ وطـــنٍ ... مِـــن قبـــلُ كـــم أذهـــب مِـــن أحـــزانها

مســـرح إخـــواني، ونفســـي حـــرَّةٌ ... مُـــذ خُلِقَـــت تَصـــبُو إلى إخـــوَانها

(ابن الساعاتي، ١٣٤/٢)

وقفة جمالية: في هذه الأبيات يرسم لنا الشاعر صورةً مفعمة بالحيوية من وطنه دمشق يصوّر فيها الجمال الذي يشبه جمال الجنّة من حور عينها وولدانها. ويتشوّق ابن الساعاتي إلى وطنه الشام فيتحدّث عن أهلها، ويصوّر جمال طبيعتها، ويفضّلها عن غيرها من البلاد، فهو يتشوّق إليها وهذا الشوق مدفون في وطنه الشام؛ وهكذا يصوّر حنينه إلى وطنه؛ فيقول:

أوطَـــانُ أوطَـــارِي وَديـــنُ صَبَابَتـــي ... ألاَّ أحـــولَ صَبَـــابَـــة عَـــن دِينـــهَا

تَختـــالُ نَفسُـــكَ في نَفَاسَـــةِ أهلِهـــا ... وتلـــذُّ عينـــك في محاســـن عِينـــها

هَتَفَـــت بِوَجـــدِي والغَـــرامُ سَـــواجِعٌ ... جَـــاءَت عَلـــى أفنـــانِها بِفنـــونها

شَـــوقي دَفِـــينٌ بالشَّـــامِ وَنَشـــوَةُ الـــ ... أشـــواقِ لا يُصِيبـــك مِثـــلُ دَفِينـــها

(المصدر نفسه، ١٢٥/٢)

وقفة تحليلية جمالية: يصف الشاعر في هذه الأبيات الشعرية، شوقه ولهفه إلى وطنه الذي يكاد يقضي عليه، ويصوّره بأنّه دفين في وطنه الشام وبهذا يريد الشاعر أن يعبّر بمشاعره الرّهيفة عن اشتياقه إلى الوطن. وفي موضع آخر يتشوّق الشاعر إلى دمشق وهو يسكن مصر، فيذكر مواطن أنسها وطراوة عيشها وغضاضتها؛ فيقول:

وَمَواقـــفٍ بـــالنَّيربين شهـــدتُها ... وَالعيـــش غَـــضٌّ وَالزّمـــانُ غُـــلامُ

جمَـــدَ المُـــدامُ بِهـــنَّ فهـــو فواكـــهٌ ... تُجنَـــى وَ ذَابَ التِّـــبرُ فَهـــوَ مُـــدامُ

(المصدر نفسه، ٧/٢)

ويحنّ الشاعر إلى ((زَرُود)) وهو مكان بطريق الحجّ من الكوفة، ويتشوّق إليه ولكن

يصعب على الشاعر زيارته بسبب بعد المسافة، فيقول:

حَـــنِينٌ وَلكـــن أيـــنَ مِنـــكَ زَرُودُ وَشَـــوقٌ وَلكـــنَّ المَـــزَارُ بَعِيـــدُ

(المصدر نفسه، ٦٣/١)

وقد مرّ ابن الساعاتي بالدّار التي كان يسكنها بالمحلّة الكبرى بمصر فتذكر حلو العيش الذي قضاه فيها وقد هاجت عواطفه، فيبكي عليها بكاءً غزيراً ونيران قلبه قد التهبت من شدّة التشوّق إليها؛ فيقول:

ألا يـــا دارُ لا أوْحشـــتِ يَـــوماً فَكـــمْ أصْـــبحْتِ فِي أنـــسٍ وأمـــنِ

أخَـــافُ عَليـــكِ مِـــن نِـــيران قَلْـــبي وَأشـــفقُ فِيـــك مِـــنْ طُوفـــان جَفْـــني

(المصدر نفسه، ٢٧٦/١)

وقفة تحليلية جمالية: يصوّر الشاعر في هذين البيتين صورة تزخر بالعاطفة الجياشة تجاه الوطن إذ يعبّر الشاعر عن شغه ولواعج نفسه بسبب الفراق عن الوطن بنيران تسعر في جوفه ويعبّر عن دموع عينيه بالطوفان الذي لا يكاد يقضي على وطنه.

٢ـ١ـ٣ـ الحنين إلى نجد.

نرى ظاهرة الحنين إلى نجد في شعر كثير من الشعراء؛ فهي تحتلّ مكانة كبيرة في الشعر العربيّ في مختلف العصور؛ فقد تغنّى بها الشّعراء وحنّوا إليها، وذكروا مرابعها، سواء من عاش بنجد أم من كان بعيداً عنها، فقد ظلّت نجد مُلهمةً للشّعراء يتغنّون بها وصارت رمزاً للشّوق والحنين إلى الأرض والوطن. وما أحبّ الشعراء نجداً إلاّ أنّها ترمز للأصالة العربيّة والفروسيّة والنّقاء اللغوي بالإضافة إلى جمال الطبيعة وجمال أهلها وطيبتهم ونقاء أصولهم وأعراقهم. (الجبوري، ٢٠٠٨م: ١٧٣و١٩٢). فابن الساعاتي يتشوّق ويحنّ إلى وطنه فيذكر نجداً فيلقي إليها التحيّة ويعبّر عن حزنه وألمه الذي حصل إثر الابتعاد والفراق عن الوطن، فيقول:

سَـــلامٌ عَلَـــى نَجـــدٍ ومِـــن لاعِـــجِ الهَـــوَى ولوعتـــه قـــولي: ســـلامٌ علـــى نجـــد

(ابن الساعاتي، ١٤٢/٢)

وفي موضع آخر من الديوان يلقي الشاعر سلاماً على نجد وعلى ساكنيه، ويعتقد أنّه لم يُفد في هذه الفترة الزمنية التي يعيشها الشاعر سوى بداية حبّ نجد وبقيّته وأثره:

سـلامٌ عَـلى نَجـد وسـاكن ظلّهـا وإن لم يُفـد إلّـا رسـيسَ الهَـوى نَجـد

(المصدر نفسه، ٥٩/١)

ويشتاق ابن الساعاتي إلى نجد وقد صعب لقاءها حيث أصبحت زيارة نجد كمنية يتمنّاها الشاعر أن تُعطَى إليه:

وأصـبُو إلـى نجـدٍ وعَـزَّ لِقاءُهـا فَيـا ليـتَ نَجـداً منيـةٌ كنـتُ أُعطاهـا

(المصدر نفسه، ١٩٠/١)

والشاعر يعبّر عن حنينه إلى وطنه بذكر نجد، فهو يعشقها ويهيج قلبه ذكراها؛ فنجد هو رمز خالد لذكر الوطن الحبيب.

ولي قَلـبٌ يَهيـجُ هَـواهُ نَجـدٌ وقِـدماً كـانَ يُطرِبُـهُ الحـيارُ

(المصدر نفسه، ٢٠٠/٢)

٢ـ١ـ٤ـ الحنين إلى الأهل والأصدقاء والأقرباء

وعندما يغادر المرء وطنه ويرحل إلى بلد آخر، فهو يبتعد عن أهله وأحبّته وأصدقاءه فيحنّ إليهم، كما حنّ الشعراء عندما شعروا بهذه الغربة. ويرى محمّد أحمد الدّقالي في دراسته حول الحنين في الشعر الأندلسي أنّه ((من الطبيعي أن يحنّ المرءُ إلى أهله، وأقربائه وأصدقائه، وإلى الذكريات التي قضاها معهم بما تحمله تلك الذكريات، لأنّها تعدّ جزءاً من ماضٍ عزيز يتذكره دائماً ويحنّ إليه)). (دقالي، ٢٠٠٨م: ٢٨٧). فنرى هذه الظاهرة بارزةً في شعر ابن الساعاتي فهو يشتاق إلى جيرانه في دمشق عندما يتذكرها؛ فيقول:

واطَـرَبا إلـى دمشـقَ وإلى جَيرونهـا شـوقاً إلى جِيرانهـا

(ابن الساعاتي، ١٣٤/٢)

ويمرّ الشاعر بالمحلّة الكبرى بمصر وقد كان يسكنها شطراً من حياته وقد أودع ذكريات كثيرة فيها، وقد فوجع في هذه المحلّة بفقد ابنه فيتذكره ويبكي لذكراه، فيقول:

وَأعْـــتبُ فِيَّ أحـــداث اللّيـــالي ... وَكـــم فُجِعـــتَ أبَـــاً فِي الـــدَّهْرِ بِـــابنِ

فَـــوا أسَـــفا عَلـــى وَجْـــهٍ وَقَـــدٍّ ... همـــا شَـــجناي مِـــنْ طلْـــقٍ وَلـــدْن

دَفَنتُهُـــما فَـــوا كمـــدي وقـــولي ... دَفَنتُهُـــما مَـــقالٌ ليْـــسَ يُغنِـــي

فَألِـــم بالمَحلَّـــةِ واشـــكُ بَثّـــي ... هُنـــاك لِصـــاحِب القَبْـــرِ المُـــبنّ

(المصدر نفسه، ٢٧٦/١).

وقفة تحليلية جمالية: يصوّر الشاعر في هذه الأبيات صورة مأساوية عن أب فقد ابنه؛ وهذا الشعور بالألم بسبب الفقدان يأخذ بأحشائه كلّ مأخذ. ويشكو ابن الساعاتي أحبّائه بسبب فراقهم، فهم قد اجتمعوا على الصدّ والفراق، فيتألّم الشاعر من فعل أحبّائه، ويتوعّدهم إن استمرّوا على الفراق؛ فلم يعبأ أن يحنّ ويتشوّق إليهم.

أ أحبَـابِنَـا عَـفـوَاً مَقالَـةَ مُذنِـبٍ ... وَحَقِّكـــم لم أجـــنِ فِي حُبِّـــكم ذَنبَـــا

جَمَعتُم عَلينـا الصـدَّ وَالعَتـبَ فِي الهَـوَى ... بِحَـقِّ الهَـوَى لا تَجمَعُـوا الصـدَّ والعَتبـا

لَئِـــن ظَلَـــتُم حِـزبَ القَطِيعَـــةِ وَالنَّـــوَى ... فَـإنَّ الجَـوَى وَالشَّـوقَ أمسَـى لَنـا حِزبَـا

(المصدر نفسه، ٢٠٧/٢)

وقفة تحليلية: يطلب الشاعر في هذه الأبيات من أحبّائه أن يحنّوا إليه ويعفوا عنه لأنّه لم يكن جافياً في حبّهم. فالشاعر يرسم في هذه الأبيات صورة صادقة من الحبّ تجاه الأحبّاء فهو يعتذر منهم ويطلب منهم العفو والصفح وهو بريء لم يجف في حقّهم وهم قاموا بالصدّ والفراق. وفي النّهاية إذا استمرّ الأحباب بالقطيعة والفراق فهو لم يكترث بصدّهم بل يقيم على حبّهم لأنّه مازال شغوفاً ومشتاقاً إليهم والشاعر عند فراق الأحبّة و الأصدقاء، يتألّم شديداً فيشعر في أحشائه بهمٍّ عظيم يكاد أن يحبس أنفاسه، وأدمعه تسيل وتنسكب على خدّه بغزارة.

أنفـــاسي بعـــدهم صُعـــدٌ ... وَدُموعـــي واكفَـــةٌ صَـــببُ

(المصدر نفسه، ٦٦/١)

ويحلف الشاعر يميناً بأنّه بعد فراق الأحبّة يعيش حياة أليمة فهو يحسّ بالغربة في أحشائه

فيحنّ إلى أحبّته، فيقول:

يمينـــاً لَقَـــد أســـكنتُ بَعـــدَ فراقِـــكم غريـــبَ الهَـــوَى بَـــينَ الحَشَـــى وَالجـــوانح

(المصدر نفسه، ٨٠/١)

٢ـ١ـ٥ـ الحنين إلى الذكريات الماضية.

يذكر الشاعر ذكرياته الجميلة المؤنسة التي كان قد قضاها في تلك الديار والأمكنة، فيحنّ إليها. ويمثّل الحنين إلى الذكريات الماضيّة في شعر ابن الساعاتي جزءاً من حياته إذ نراه يحنّ إلى أيّام الصّبا وعصر الشباب الذي رحل ولم يعد، ونرى هذا النوع من الحنين بوفرة في شعر ابن الساعاتي، فهو يشعر بالأسف على زمن الفتوّة والعنفوان، فيحنّ ويتشوّق إلى تلك الأيّام لكنّ هيهات لم يرجع الماضي بما فيه من الذكريات وأيّام الأنس والراحة، فيقول:

نَعَـــمْ إنّهـــا نَفْـــسٌ تَتَـــوق إلى الصِّـــبا وَهَيهـــاتَ مَاضِـــي العَـــيْشِ لَـــيْسَ يَعُـــودُ

ثُقِـيمُ عَلَـى بـأسٍ وَلِلشَّـوقِ فِي الحَـشَا زميـــــلٌ إلـيسُكانِـــــها وَوَخيـــــدُ

(المصدر نفسه، ٦٣/١)

وقفة تحليلية: يصف الشاعر نفسه في هذين البيتين بأنّها أشدّ اشتياقاً إلى أيّام الشباب لكن لا سبيل لهذه الأمنية؛ ويشبه الشوق إلى ناقة تسير أنواع السير لتصل موطن الأحبّة. وهو يذكر تلك الأيّام التي قضاها في وطنه فكان في راحة العيش والغنى يميل إلى اللهو واللعب وهو في سكرة الشوق لا يفيق منها؛ غير أنّه قد خَانَه الشباب فنكث عهده الذي كان يثق به، فمضت أيّام الأنس والدّعة ولم يبق منها سوى ذكريات تؤلم الشاعر ذكراها:

صـحبتُ بهـا الأيّـامَ مـن خمـرةِ الصِّـبا وتِـــيهِ الغِـــنَى نشـــوانَ غَـــيرَ مُفِـــيقِ

ومَـــا خَانَـــني إلاّ الشّبـــابُ فإنّـــني وثِقـــتُ بـــعهدٍ مـــنهُ غَـــيرِ وَثِيـــقِ

(المصدر نفسه، ٥/٢)

وللشاعر ليالٍ منيرات يتمنّاها أن يرجع إليه البعض منها، لكنّه يجهد عبثاً فنهاية جهد المحبّ أن يتمنّى ما لاتصل إليه يده، فهو يعتب الأيّام التي قد مرّت، ولكن لم تزده الأيّام سوى حقدها وأضغانها.

اتمـــنَّى تلـــك اللَيـــالِي المُنِيـــ ـــــرَاتِ وَجُهـــدُ المُحِـــبِّ أن يَتَمَنَّـــى

وَعَتَّـــبنا الأيَّـــامَ بَعـــدُ وَمـــا تَـــز دَادُ إلّـــا حِقـــداً عَلَيَنـــا وضِغـــنَا

(المصدر نفسه، ٢٦٣/١)

وقفة تحليلية: يعبّر الشاعر في هذين البيتين عن ليالي الأنس مع الأحبّة بأنّها منيرات تشرق في خاطره وهو يتمنّاها ولكن دون جدوى. وفي موضع آخر من الديوان يتذكر الشاعر أيّام الشباب فتضطرب له الأحشاء عند تذكرها؛ فيبكي بكاءً غزيراً على تلك الأيام لكنّه برغم الأيام له عزم الشباب وفكره لا يخضع لأحدٍ.

وَعِنـــدِي مِـــنَ الأيّـــامِ مـــا يَـــرقُصُ الحشَـــا وَيصـــحِبُني كـــأسَ الدُّمـــوعِ مُروَّقَـــا

وَلكنَّمـــا ثَـــوبُ الشَّبِيبَـــةِ مُـــعلَمٌ وَحَيَّـــاتُ فِكـــرِي لا تَلِـــينُ عَلَـــى الرُّقَـــى

(المصدر نفسه، ٩٩/٢)

وقفة تحليليّة جماليّة: يصوّر الشاعر في هذين البيتين صورة الحُزن والأسى بسبب تذكر أيّام الأنس فهو يشرب خالص الدّموع عند تذكرها ولكن أيّام الشباب قد انتهت وعلائم المشيب عليه قد بدت. ويتمنّى الشاعر أن ترجع الليالي والأيّام التي تمرّ كمرّ السّحاب وتنتشر رائحتها الشذيّة التي تشبه رائحة الرياض، لكن هيهات لم يرجع الماضي من العيش، ولم يحصل الشاعر على ما يتمنّاه.

لَيـــالٍ وَأيّـــامٍ تَمُـــرُّ كأنّهـــا رِيـــاضٌ شَـــذا أنفاســـها يـتضـــوَّعُ

لعـــلَّ اللّيـــالي أن تكـــرَّ رَواجِعـــاً وَهَيهَـــاتَ مَاضِـــي عيشـــةٍ لـــيسَ يَرجَـــعُ

(المصدر نفسه، ٢٨١/١)

٢ـ١ـ٦ـ الحنين إلى المحبوب.

عبّر الشعراء عن حنينهم وشوقهم تجاه المحبوب الذي شعروا بفقده، والمحبوب هو الحبيبة أو المعشوقة التي تعلّق بحبّها الشاعر في فترة زمنيّة إلى أن حال الفراق بينهما؛ فهو يعبّر بشعره عن إحساسه المرهف عن الذكريات التي قضاها معها ويعكس آلامه بسبب غياب المحبوب ويصوّر أيّام الوصال التي قد ذهبت؛ وحلّ محلّها ليلاً طويلاً من الفراق والأشجان. فالحنين

إلى المحبوب هو ((موقف شعوريّ صادق، تغذّيه التجربة بالألم، وترفده برقة المشاعر ورهافتها، فيفيض على لسان الشاعر قصائد ومقطوعات عذبة، تنمّ عن شفافية الإحساس، وزخم العواطف المتّقدة في صدره)) (حبيب محمود، ٢٠٠٣م: ص١٢١). فنرى ابن الساعاتي يحنّ إلى حبيبته فهو لايزال متعطّشاً متشوّقاً لرؤيتها، فلا يكاد الحنين يطفئ نار أحشائه، فيقول:

أحنُّ إلى هِنْدٍ وَهَلْ يَنقعُ الصَّدى وَبَرْحَ الحشا قولي أحنُّ إلى هِنْدِ

(المصدر نفسه، ٩٩/١)

فهو يشعر بحرقة في فؤاده بسبب البعد والفراق عن المحبوب؛ وهذا الحنين لا يبرّد غليله. فيظلّ الشاعر يبكي على الرسوم الباقية من دار المحبوب ليخفّف من ألم الهجران والفراق.

يا دُميةَ الحيّ ما حُزني لفرقتكم دَعوى ولا وجديَ العذريَّ مَنحُولُ

ظللتُ في الدّارِ أبكيها وَيُضحِكها دَمعٌ عَلَى تلكمُ الأطلالُ مَطلُولُ

(المصدر نفسه، ٤٧/١)

وفي موضع آخر يتألم الشاعر ويشعر بالحنين إلى المحبوب فليالي الوصل القصيرة قد مضت وأعقبتها ليالٍ تطول بين الحزن والأسى.

مَضَت قِصارُ لَيالِينَا وَأعقَبَها لَيلٌ طَويلٌ وَفي لَيلِ الأسَى طُولُ

(المصدر نفسه، ٤٨/١)

ويعتقد الشاعر بأنّه قد قُتل إثر فراق حبيبته، والخضاب الذي اصطبغ به بنان الحبيبة لم يكن إلاّ من دمه، وسيكون مصيره الموت إذا لم يكن من بعد الفراق وصال، ومن بعد الهجر لقاء؛ فيقول:

عُجْ بِالمَطيّ فإنّ في أظعانِها من لَيسَ غَير دَمي خِضابُ بنانها

فالموتُ كلّ الموت دون وِصالها وَالمَوتُ كلُّ المَوتِ في هجرَانِها

(المصدر نفسه، ٦٠/١)

وقفة تحليلية بلاغية: يرسم الشاعر في هذين البيتين لوحة رومانسيّة من العاشق المفتون

القتيل على يد المحبوب ويستخدم من المحسنات البديعية حُسن التعليل إذ جاء بخضاب بنان المحبوب علامةً على قتله لأنّه يشبه دم العاشق. ويتذكر الشاعر حبيبته ((لمياء)) وقد أصابه شغف من فراقها فهو لا يمتلك الحلم، ولا يستطيع اصطباراً، ودمعه الغزير وسقمه المضاعف هما أحسن شاهد على هذا الوجد والحنين.

لي في هـــوى لميـــاءَ لا لكـــمُ حلمـــي وليـــس عليكـــمُ جَهلـــي

جحـــدتْ بهـــا وَجـــدي، وَدَمعِـــيَ وَالسُّـــقمُ المضـــاعَفُ شـــاهداً عَـــدلِ

(المصدر نفسه، ١٨/٢)

وقفة تحليلية جمالية: قد صوّر الشاعر في هذين البيتين صورة عاشق محبّ لا يتمالك صبراً تجاه المحبوب؛ ولهذا العاشق المفتون علائم تدلّ على حبّه وافتنانه وشغفه؛ فالدموع والسقم المضاعف في جسمه يدلّ على ذلك. ويهيم الشاعر شوقاً إلى المحبوب الذي قتله بالفراق والهجران، فلولا الهوى والشوق إلى المحبوب لِما اشتاق الشاعر إلى قاتله.

أهِـــيمُ إليـــهِ شـائِقـــاً وَهـــو قاتـــلٌ وَلـــولا الهـــوى مـــا همـــتُ شـــوقاً بقاتـــلِ

(المصدر نفسه، ٢٨/٢)

٢ـ٢ـ الحنين والغربة الزمنية.

هو تعبير عن حالة نفسيّة تصيب الإنسان وهو يعيش داخل وطنه بين أهله وذويه فتجعله يشعر بالغربة بسبب من الأسباب كعدم اهتمام النّاس والحكام بمكانة الشاعر، وفقدان المكانة الاجتماعيّة والمنزلة التي يستحقّها، وقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة صوراً عديدة كذمّ الزمان الذي يعيش فيه هؤلاء الشعراء، أو ذمّ أهلها فمن هذا النوع من الحنين في شعر ابن الساعاتي قصيدة قالها عندما توجّه إلى مصر يذكر سبب تركه للوطن، فهو يشعر في وطنه بغربة وعزلة لأنّ النّاس من حوله لا يعرفونه حقّ معرفته فهو لِطلب العلى والحصول على المكانة التي تليق به يترك وطنه؛ ويعتقد أنّ طول المقام منقصة لأهل الفضل، فعندما يبتعد الإنسان عن وطنه تُدرك قيمته، وبذلك يحصل على مكانته وشرفه وعزّته؛ يقول:

ما سرتُ عن جلّقٍ ابغي البديل بها ... لولا طلابي محلاً للعلى قَذَفا

طول المقام لأهل الفضل منقصة ... والمسك لولا النّوى ما أدرك الشرفا

لو لم تجرّد سيوف الهند ما رُهبت ... والدرّ ما جُلَّ حتّى فارق الصَّدفا

(ابن الساعاتي، ١٧٤/٢)

وقفة تحليلية بلاغيّة: شبّه الشاعر نفسه في هذه الأبيات بالمسك للدلالة على شرفه وعلوّ مكانه والمسك عندما يباع في غير وطنه يكون غالياً هكذا حال الشاعر فهو يكون غالياً عندما يفارق وطنه؛ وهكذا حال الشاعر بمفارقة الوطن كالسيف الذي سُلّ من غمده وكالدّرّ الذي أُخرج من الصدف. ويشعر ابن الساعاتي بغربة في نفسه لأنّ مواطنيه لم يقدّروه حقّ قدره، أو على الأقلّ منه لم ينظروا إلى مكانته كما كان ينظر إلى نفسه. فكلّ النّاس لهم أوطان، لكنّه يشعر بالغربة في وطنه؛ فيقول في قصيدة:

يهونُ عنديَ الحدثان صبري ... فما أخشى النوائب أن تنوبا

وما أشكوا سوى حسنات دهري ... فلو حَاقَقته كانت ذنوبا

وكلٌّ باتَ ذا وطنٍ وأهل ... وليس به سوى فضلي غريبا

(المصدر نفسه، ٢٩٤/٢)

وقوله للقاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني وقد قصده إلى المخيَّم السلطانيّ في ((آمد)) بلدة قرب ديار بكر، فهو يشير في هذه الأبيات إلى غربته وضياع أدبه وكرامته في قومه وبلده، لكنّه لم يكترث بالنّاس ولا يعتني بهم، لأنّهم لا يدركون قيمة أدبه، فهو قد نشر أدبه في كلّ العالم كعود الهند الذي ينشر عطره في كلّ مكان:

فإن بلدٌ لم أغدُ فيه مكرَّما ... نهضتُ فاعملتُ الجُدَيليَّةَ البُدنا

وما شأن فضلي بين أهلي خمولة ... وقد بلغت آياته الأنس والجنا

فإنّي كعُود الهندِ هِينَ بدوحه ... وقد عبَّقت أنفاسه السهل والحزنا

(المصدر نفسه، ٢١٤/٢)

وقفة تحليلية بلاغيّة: شبّه الشاعر نفسه في هذه الأبيات بعود الهند؛ وعود الهند شجرته

صغيرة لا يُعنى بها، لكن ينشر عطره ورائحته في كلّ مكان، فهكذا حال الشاعر فقومه لا يعتنون به ولكنه قد نشر أدبه في كلّ العالم. وهو يشعر بهذه الغربة أكثر فأكثر حين ينظر أن ليس له في وطنه وبلدته من أحد، فلا إخوان ولا أعوان ولا خلّان، فيقول:

أبكـــتني الأيّـــام مُـــذ ضـــحِكت ... لي عـــن نُيـــوبِ نوائـــب عُصـــل

أفســـدن خـــلاّني فمـــا لي في الـــ ... ـــسرَّاء والضَّـــراء مـــن خـــلٍّ

(المصدر نفسه، ١٨/٢)

وهكذا كانت حاله في دمشق، يقلقه الحسّاد والمدّعون، و يؤلمه أنّ النّاس لا ترفعه إلى المنزلة التي يستحقُّها، فليس له إلاّ أن يرحل، لكنّه بقي دائم الحنين إلى دمشق وأيّامها.

٢ـ٣ـ الحنين و الغربة الروحيّة

هو الشعور بالغربة في هذا الوجود كما في حالة الزهّاد الذين يشعرون بالغربة في هذا العالم ويطلبون آمالهم في العودة إلى عالم الروح أو الآخرة. ولهذه الغربة الروحيّة بعداً دينيّاً إذ يعبّر عنها بالحنين الدينيّ، فله صلة وثيقة بالدين الذي يحكمها ويحدّد مسارها واتجاهها، ويشعر الإنسان بهذا الإحساس العميق أنّ هذه حياة الدنيا هي ليست بدار قرار وهذه الأرض التي نعيش عليها ليست هي حياة الروح الخالدة فلذلك يعيش فيه كأنّه غريب وينتظر يوماً تعود الروح فيها إلى عالم وهذا المفهوم نجده أكثر عمقاً ووضوحاً عند شعراء الزّهد والتّصوّف، حيث لم يشعروا بغربتهم على المستوى الزّماني، أو المستوى المكانيّ، بل شعروا بغربتهم بهذا الوجود، وغربة أرواحهم في أجسادهم، وهذه المفاهيم تكتسب أهميّتها، وتلقي قبولاً من النّاس في الفترات الحرجة، والأوقات العصيبة، حين يضيع الأمان، وتتأزّم الأمور. (دعدور، ٢٠٠٢م، ص٢٤) وسمّاها ابن قيم الجوزية غربة الهمّة، أو غربة طلب الرزق، أو غربة العارف. (ابن قيم الجوزية، لاتا: ص١٣).ونرى هذا النوع من الغربة والحنين بارزاً في شعر ابن الساعاتي الذي قد ظهر نتيجة تقرّب الشاعر من الله تعالى، فهو يعتقد أنّ هذه الدّنيا مع حسن جمالها ناقضة العهد لا يعتمد عليها، والإنسان في هذه الدّنيا، يحبّ التلذّذ بأعمال تليها الندامة، وهو يرد الماء الذي يكون مشربه وخيماً:

وما هذه الدنيا وإن راق حسنُها ... سوى غادرٍ في غدره متصنّع

يلذُّ لنا مَجنَى تليه ندامةً ... ويعجبنا وِردٌ وَخيم ومَرتَعُ

(ابن الساعاتي، ٢٨٢/١)

وقفة جماليّة: يصف الشاعر هذه الدنيا بأنّها تخدع الإنسان وتجلبه إلى وردٍ وخيم لا تحمد عقباه؛ فيندم الإنسان بما يجني منها من الملذّات والشهوات.

ويطمع الإنسان أن يبقى في هذه الدّنيا وهي ليست بدار قرار، ويسرع في آفاقها كأنّه خالد فيها، لكنّه يسعى في سبيلٍ ستكون المنيّة عقباه.

ونَطمعُ فِيها بالمُقامِ وَإِنَّنا ... إلى أمَدٍ منها نخبُّ ونُوضِعُ

وكلّ ابن أنثى سالكٌ من جهاتها ... سبيلاً إلى باب المنيّة مَهيعُ

(المصدر نفسه، ٢٢٨٢/١)

ويتساءل الشاعر بأن هل يمكن السكون في هذه الدنيا؟ فلذّاتُ الدنيا لم يصحبها سوى الأحزان والآلام، فكيف يمكن البقاء والسكون فيها وهي مليئة بالمتاعب والأحزان.

كيف السكون من الدنيا إلى سَكنٍ ... وآخر اللَّهو منها أوَّلُ الحَزَن

إلى الفناء تصير الخلق قَاطِبَةً ... فأنتَ تدأبُ في تثميرها لِمنِ؟

(المصدر نفسه، ٢٨٨/١)

وهذه الدنيا لم تدم لأهلها كما لم تدم لأحدٍ من الملوك؛ فيُديم الشاعر تساءله، فيسأل المدائن مقرّ الأكاسرة التي مازال آثارها ماثلة من قرب بغداد، وغُمدان وهو قصر ملوك اليمن الذي كان يسكنه سيف بن ذي يزن أمير اليمن المشهور قبيل الإسلام، فيقول: هل كان لُملككم في هذه الدنيا بقاء؟

سَلِ المَدائنَ عَن كسرَى وَشيعتَهُ ... ورأسَ غُمدان عَن سَيف بنِ ذي يَزن

(المصدر نفسه، ٢٨٩/١)

فهكذا نرى آثار الحنين والغربة الرّوحية بأشكالها وصورها المختلفة في أشعار الشاعر الإيرانيّ ابن الساعاتي الذي قضى حياةً زهيدةً في الدنيا تاركاً ملذّاتها.

نتيجة البحث:

أمّا النتائج التي استخلصناها من خلال بحثنا هي؛ أنّ الشاعر ابن الساعاتي غادر وطنه الحبيب وهو غير راغب بالبعد والرحيل لكن الظروف هي التي أجبرته على ذلك فبقي كثير الحنين إليه، وقد تجلّت آثار الحنين و الغربة في ديوانه الشعريّ، وكان حنينه صادقاً يعبّر عن مدى علاقة الشاعر بوطنه. وقد عبّر الشاعر عن هذا الحنين والغربة المكانيّة بذكر الأطلال والدّمن، وذكر الوطن بما فيه من جمال وأنهار، وذكر الأحبّة والأصدقاء وذكر المحبوب؛ كما حنّ الشاعر إلى أيّام الشباب بذكر الذكريّات الماضيّة. واحتلّ شعر الحنين إلى الوطن جانباً كبيراً من نتاج الشاعر، فقد عبّر من خلاله عن حنينه الممزوج بالألم والحسرة على فراق الوطن. وفي مجال الحنين والغربة الزمنيّة قد عبّر الشاعر عن مشاعره حول فقدان مكانته الإجتماعية والمنزلة التي يستحقّها، فالنّاس من حوله لا يقيمون له ولأدبه وزناً. و هذا من الأسباب التي أدّت إلى غربة الشاعر وهو يعيش بين أهله وذويه. وقد عبّر ابن الساعاتي عن هذا الشعور في كثير من أشعاره وقام بذمّ الزمان الذي يعيش فيه أو ذمّ أهلها. وظهرت أشعار الحنين عن مظهر آخر من مظاهر الحنين وهو الحنين الدّيني، الذي ظهر نتيجة تقرّب الشاعر من الله تعالى. فقد عبّر الشاعر في هذا النوع من الغربة والحنين، عن غربة الروح في هذه الدّنيا، وبأنّها ليست بدار قرار ولا جديرة بالبقاء والسكون، فعلى الإنسان أن لا يغترّ بها ولا يعتمد عليها.

الملخص:

عندما يبتعد الشاعر عن وطنه، أو عن أحبّته وأصدقاءه، أو عن محبوبه، يحنّ إليهم فيعبّر عن هذا الحنين بشعره. فتدرس هذه الورقة البحثية هذا الموضوع على المنهج النقلي والتحليلي ومن هؤلاء الشعراء الذين مارسوا الحنين والغربة في شعرهم هو ابن الساعاتي الذي ظهرت في أشعاره مظاهر الحنين والغربة بكثرة. والحنين هو مصطلح أدبي طغى في شعر الشعراء الذين ابتعدوا عن وطنهم فاعتراهم الشوق إليه؛ والغربة هي عاطفة تستولي على المرء، فيشعر بألم وكآبة تجاه ما ترك من المفتقدات. ويضُمُّ الحنين والغربة أنواعاً مختلفة كـ: الحنين والغربة المكانية وهو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان بسبب بعده عن وطنه؛ والحنين والغربة الزمنيّة وهو أنّ الشاعر يعبّر عن مشاعره حول انقطاعه في حقبة زمنية معينة والحنين إلى المكانة الاجتماعية إزاء فقدان مكانته الاجتماعية والمنزلة التي يستحقّها.

وأمّا النوع الأخير هو الحنين والغربة الرّوحيّة وهو الشعور بالغربة في هذا الوجود كما في حالة الزهّاد الذين يشعرون بالغربة في هذا العالم ويطلبون آمالهم في العودة إلى عالم الروح أو الآخرة. وقد تجلّى التعبير عن الغربة والحنين بأشكاله المختلفة في شعر ابن الساعاتي الشاعر الإيرانيّ الأصل؛ فقمنا بدراسة هذه الظاهرة بدقّة وإمعان في ديوانه الشعريّ، وفي الختام استخلصنا النتائج أنّ آثار الحنين والغربة ظاهرة في كثير من آثاره الشعريّة، وقد عبّر من خلال أشعاره عن مشاعره وأحاسيسه حول الحنين والغربة إلى الأصدقاء والأحبّاء والوطن. ونحن في هذه الورقة البحثيّة استعملنا المنهج النّقلي التّحليلي ووفدنا على ديوان الشاعر ابن الساعاتي وعمدنا إليه بوقفات تحليلية، جمالية وبلاغيّة.

الكلمات الدليليّة: الوطن – الأصدقاء والأحباء – الشاعر الإيراني – الشعر والأدب.

Abstract

Parting and exile poetry, poetry is always important issues, whenever the poet away from their land and migrate to another country, away from friends and associates and his mistress, the passion nostalgia and The poet was raised, And with the passion and poetry of the land homeland and his friends would say. Among the poets Ibn Assaati of the grounds of his home country, came to Egypt to Syria. But always meeting nostalgia and enthusiasm in his beloved homeland and the land remained alive and in this sense he was forced to compose poems in this issue, so that poetry poet poem is filled with such.

In this paper, we try Parting of nostalgia and excitement to the place of departure and the nostalgia that comes from a sense of patriotism is parting and parting and ignoring the plight of the poet's literary and scientific status of the rulers and the people of the times, and ascetic view and departure and roving spirit that because the poet is born, we will examine the poetry of Ibn Assaati.

Keywords: Parting Passion - Nostalgia - Ibn Assaati - poetry and literature.

هوامش البحث ومصادره

- ابن أبي اصيبعة. (١٣٠٠هـ). **طبقات الأطبّاء**، ج٢-١، مصر، د.ط.

- ابن الساعاتي، بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم بن هردوز الخراسانيّ. (١٩٣٨م). **الديوان**، ج٢-١، بيروت: الجامعة الأمريكية.

- ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمّد. (١٩٥٠م). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق: إحسان عبّاس، القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة، د.ط.

- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. (٢٠٠٣م). **الشعر والشعراء**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار الحديث.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر؛ (لا تاريخ)، **الغربة والإغتراب**، القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، د.ط.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم. (١٩٩٤م). **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة.

- الإبياري، إبراهيم. (١٩٦٢م). **الوطن في الأدب العربي**. القاهرة: دار القلم.

- امرؤ القيس، ابن حجر الكندي. (لا تاريخ). **الديوان**. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة.

- البيهقي، إبراهيم بن محمّد. (١٩١٩م). **المحاسن والمساوئ**. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف.

- التونجي، محمّد. (١٩٩٩م). **المعجم المفصل في الأدب**. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٧٨م). **الحنين إلى الأوطان**. تحقيق: عبدالفتّاح قبلان. مصر: مطبعة المنار، الطبعة الأولى.

- الجبّوري، يحيى. (٢٠٠٨م). **الحنين والغربة في الشعر العربي** (الحنين إلى الأوطان). عمّان: دار مجدلاوي، الطبعة الأولى.

- الحمويّ، ياقوت عبدالله (لا تاريخ). **معجم البلدان**. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، بيروت.

- حوّر، محمّد إبراهيم. (١٩٧٣م). **الحنين إلى الوطن في الأدب العربيّ حتّى نهاية العصر الأمويّ**. مصر، القاهرة: دار نهضة.

- دعدور، أشرف علي؛ (٢٠٠٢م) **الغربة في الشعر الأندلسيّ عقب سقوط الخلافة**، القاهرة: دار نهضة الشرق، ط١.

- دقالي، محمّد دحمد. (٢٠٠٨م). **الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري)**. الإسكندريّة: دار الوفاء للطباعة و النشر، الطبعة الأولى.

- قدامة بن جعفر، أبو الفرج. (لا تاريخ). **نقد الشعر**. تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجي. بيروت: دار الكتب العلميّة.

- المرزوقي، أحمد بن محمّد. (١٩٦٧م). **شرح ديوان الحماسة**. نشره: أحمد أمين وعبدالسلام هارون. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر، الطبعة الثانية.

الرسائل الجامعيّة:

- حبيب محمود، وهران؛ (٢٠٠٣م)، **الحنين في شعر صدر الإسلام**، رسالة دكتوراه، دمشق: جامعة تشرين.

المواقع الإلكترونيّة:

www.uqu.edu.sa . **موقع جامعة أمّ القرى**